عوائق الضمـــــــير

بقلم الأستاذ محمد مهدى علام

أستاذ التربية والفلسفة بدار العلوم وقسم التخصص

تناولنا فى العدد الماضى الكلام على الضمير والارادة والندم والتوبة وما إلى ذلك ، ونتكلم الآن عن حكم الضمير فنقول:

حكم الضمير لا يخلو عادة من تأثره بالعاطفة التى لا يمكن أن تفارقنا فى الحكم على أعمالنا نحن ، مهما أمكن أن تفارقنا فى الحكم على أعمال لا مساس لها بنا . إننا نتناول بأحكام الضمير أنفسنا ، ولا يمكن أن تتجرد من العاطفة أثناء إصدارنا هذه الأحكام على أنفسنا بأنها مصيبة أو مخطئة ، تجردنا منها فى أثناء إصدارنا أحكاما على مسألة رياضية بأنها خطأ أو صواب .

والناس معادن ، فهم مختلفون فى درجة العاطفة التى تصحب ضمائرهم ؛ فمنهم من تسلمه طبيعته إلى تلك العاطفة ، فيغرق فى لجتها المتلاطمة ، ويشعر بسرور بتلك العاطفة حين يطيعها ، بل إنه ليجد أحيانا ضربا من الارتياح فى شعوره بشىء من الغم لدى معارضة الضمير لتلك العاطفة ؛ إنى أرمى بعبارتى الأخيرة إلى ذلك الصنف من الناس الذى يكتفى بضرب من تأنيب النفس عند مخالفته الضمير طاعة لعاطفته فلا هو يعصيها ، ولا هو يعلن التمرد على الضمير ، أو يشق عصا طاعته لدرجة يتبلد معها فيموت ، وإن ذلك لأشبه بالمرأة التى تفرح ما تفرح فيها بالبقاء على الحظ النحس الذى لازم بطل رواية من الروايات التى قرأتها وشهدتها ، على حين أنه لا يحرك عاطفة الشفقة فيها بؤس أخت لها تساكنها وتؤاكلها وتشاربها .

وإذا تغلغل الميل إلى العاطفة فى حياة الشخص ، اختلط عليه تخيل الفضيلة بعمل الفضيلة ، وقضى نحبه قبل أن يعرف الفرق بين الأمرين ، واستمع معنا إلى تحذير ابن المقفع : « وعلى العاقل أن يعرف أن الرأى والهوى متعاديان ؛ وأن من شأن الناس تسويف الرأى وإسعاف الهوى ، فيخالف ذلك ، ويلتمس ألا يزال هواه مسوفا ، ورأيه مسعفا ؛ وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر فى أيهما الصواب ، أن ينظر أهواهما عنده فيحذره » وفى ذلك أيضا ما جاء فى وصية عبد الله بن معاوية :

« واعلم يا بنى أن رأيك إذا احتجت إليه ، وجدته نائما ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ، وأن نتيجته لا تجنى عليك »

الضمير يصيب ويخطىء : إن أحكام الضمير عرضة للخطأ ، إذ أن أهم مميزات البشر تعرضهم

للوقوع فى الخطأ ، نرى أن ضمائر بعض الناس تقودهم فى عمل من الأعمال إلى نقيض ماتقودنا إليه ضمائرنا فى ذلك العمل ، بل نحن نرى أغرب من هذا : نرى أن ضمائرنا نحن تقودنا فى حين من الأحيان إلى نقيض ماتدعونا إليه فى حين آخر . وتعليل ذلك أن الضمير يحكم على أمور مدركة مفهومة ، ومن الممكن جدا أن يظهر فيما بعد أن إدراكنا وفهمنا أمرا من الأمور كان مغايرا للحقيقة ، ويتبع ذلك طبعاً خطأ الحكم الأول الذى أصدره الضمير .

من أجل ذلك كان لزاما علينا أن نعير اهتمامنا تلك الأحكام التى تصدرها ضمائر غيرنا، ممن نقدر فيهم حب الحق ، ونعتقد فيهم الميل عن الهوى ؛ وأن نعيد البحث فيما نحن بصدده من الشئون ، مقلبين لها على كل وجه ، وفى كل ضوء يمكن أن ينير لنا سبيل تعرفها ، وبعبارة أخرى يجدر بنا أن نتق إلى قصى حد ممكن من الوثوق ، بأننا فهمنا مانحن بصدده قبل إصدار حكم عليه بأنه حق أو باطل . فاذا ما بحثنا فى الأمر كما قدمنا ، ووجدنا أن ضميرنا لايزال يحفزنا إلى العمل ، وجب أن نعمل طبقا لاملاء ضميرنا ، حتى ولو خالفنا الناس جميعاً ، لأن تلبية نداء الضمير واجب لاتجوز الحيدة عنه .

فاذا نحن وضعنا أصابعنا فى آذاننا حين سماع ذلك النداء كنا من غير شك آثمين : أى أننا نكون قد اتبعنا ما نعتقد أنه خطأ ، لأن غيرنا يعتقد أنه حق ، وفى ذلك تناقض خلقى لايرضاه لنفسه إنسان رشيد .

وإن تلك الحيطة فى تلبية نداء الضمير قبل الاستشارة هى مايسميه ابن المقفع « الجبن عن عمل ما لايجد عليه المرء موافقا » فى قوله : « وعلى العاقل أن يجبن عن المضى على الرأى الذى لا يجد عليه موافقاً ، وإن ظن أنه على اليقين »

على أنه لايجوز أن نعصى (الضمير الشخصى) طاعة (للضمير العام) ، فنحن لانعطى هذا الأخير السلطة العليا ، وإن كنا نسترشد برأيه .

فعلينا أن نبطىء فى التنفيذ بسبب الاسترشاد بحكمه ، أو كما يقول ابن المقفع ، علينا أن نجبن فلا نعجل بالتنفيذ ، ولكننا نخالف ابن المقفع فى وجوب الجبن حتى ولو ظن المرء أنه على اليقين .

وشأن الضمير الشخصى مع الرأى العام شأن مجلس النواب مع مجلس الشيوخ فى بعض الدساتير : يعرض الأول على الثانى مشروعات القوانين المزمع تشريعها ، قبل تسليمها للسلطات التنفيذية ، ليستطلع رأيه فيها ، فان أقرها نفذت ، وإن لم يقرها أبدى أسباب رفضه، ثم تعاد المشروعات إلى مجلس النواب لاعادة فحصها ، ثم ترسل مرة ثانية إلى مجلس الشيوخ ، فان أقرها، وإلا نفذت حتماً، وهنا نعود لنقتبس من حكم ابن المقفع : « لاينبغى للمرء أن يعتد بعلمه ورأيه ،

ما لم يذاكره ذوو الألباب ولم يجامعوه عليه ، فانه لايستكمل علم الأشياء بالعقل الفرد .

الصراع بين الضمير والتعصب

كما ظهر لنا أن هناك صراعاً بين الضمير والعاطفة، كذلك يوجد صراع بين الضمير والتعصب، وأنواع التعصب كثيرة ، فمنها :

(١) « التعصب للوطن » ويظهر صراعه للضمير أجلى ما يظهر فى المناقشات السياسية والاقتصادية التى يميل فيها المرء إلى مشايعة قومه بحق وبغير حق ، وليس ينقذنا من ذلك الضيق العقلى الشنيع إلا الضمير القويم ، الذى لايعرف إلا العدل فى الحكم بغض النظر عن الوطن ، والدين، وخط الطول ، وخط العرض ، أما أن تقول : أمتى أمتى ، أصابت أو أخطأت ، فقول يساوى قولك : إنى جهول ظالم لاأقيم للعدل وزناً . (١)

ولتعلم أن شعورك بوطنيتك وقوميتك شىء، وادعاءك كل الفضائل لوطنك وقومك شىء آخر: ولقد كان هذا الخطأ كثير الشيوع عند البروسيين قبل الحرب ، ولا تكاد تخلو أمة من هذا التعصب ، وإنما هى تختلف فى درجة خضوعها له .

(٢) وهناك تعصب « العقل الباطن » أو ماوراء الشعور ، ويتناول أحكامنا على الأشخاص والأفكار ؛ وداؤنا الوبيل فى هذا النوع من التعصب هو أننا نخطىء الفرق بينه وبين الحكم النزيه ، فترانا نعتقد أننا نطيع ضميرنا فى حكمه البرىء عن الهوى والضلال ، فى حين أننا غارقون فى لجة من التعصب لايستقيم معها حكم ، ولايسلم من خطرها ضمير، وبعد أيام معدودة أو سنين معدودة ، نفيق من غفوتنا ، ونرى ضلالا ذلك الذى كنا نسميه حلالا، وباطلا ذلك الذى كنا ندعى أنه حق ، وهوى ذلك الذى كنا نعتقد أنه حكم ضمير برىء نزيه عن التعصب، نفاخر به .

(٣) وهناك التعصب الذى مصدره « غريزة المحافظة على القديم » : كلنا يحب القديم ، ويحس فى الخروج عليه شيئاً من ألم الفراق، يختلف قوة وضعفاً باختلاف قوة تلك الغريزة فينا، فنا من لا يكاد يحس بذلك الألم ، إذ ليس للقديم عنده حرمة ، فهو يتبع كل ناعق ؛ ومن أمثلة هذا النوع فى الفرد : الأطفال ، وأصحاب المزاج الدموى ؛ ومن أمثلته فى الأمم : الأمة التركية الحديثة ، والأمة الأمريكية (الولايات المتحدة) ، والأمة الفرنسية ، ومنا من يرى القديم مثالا للكمال ، ولا يستطيع التسليم بأن الجديد يمكنه أن يجاريه فضلا على أن يفوقه، فهو يحنى هامته إجلالا وإعظاماً لهندسة الأهرام على حين يزعى على الأبنية الحديثة جدتها وعدم تحملها ؛ ولكن العقل الذى ظهر من دنس التعصب للقديم لمجرد قدمه ، لا يسعه إلا

(١) تدبر الحديث الشريف : « من قاتل تحت راية عمية ، يغضب لعصبته ، ويقاتل لعصبته ، وينصر عصبته ، فقتل ، فقتلته جاهلية »

الاعتراف بأن للحديث عظمته وفخاره ، كما أن للقديم مجده ووقاره . إذا استطاع الانسان أن ينظم تعصبه ويهذبه ، كانت أحكام ضميره أقرب إلى الصوب .

وجملة القول أن الضمير يجب أن يفوز فى المعركة التى تنشب بينه وبين التعصب ، وعلينا أن نرجح كفته باضعافنا من عوامل التعصب ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . يقول العلامة (جون لوك) : « على المرء ألا يحب رأياً من الآراء ، وألا يتمنى أن يكون ذلك الرأى صواباً ، حتى يعلم أنه صواب ، ثم هو فى غنى عن هذا الأمل وذاك التمنى ، لأنه لا يوجد شىء باطل يستحق أن نعقد عليه آمالنا أو يستأهل مكانة الحق وسلطته ، ومع هذا فلست ترى شيئاً أكثر شيوعا من ذلك » (١)

محمد مهدى علام

الأدب الميت

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١٩٦)

ناهضا بحدوهم إلى إعادة ماضيهم المجيد وتاريخ بلادهم المشرق ، وكفانا ما مضى من عهد قضيناه بين ظلمة اليأس وخيبة الرجاء ، متشبعين بأدب لا يهدى إلا إلى التعاسة والشقاء .

نحن الآن فى حياة جديدة ، فلماذا نقف مكتوفى الأيدى ، خاضعين لأدب بلى ، وتقادم عليه العهد ، ولم يغرس فى أفئدتنا إلا حب الكسل والخمول والرضا بالواقع ، حتى ضعفت همتنا ، وماتت آمالنا ، وأصبحنا ننظر إلى المستقبل بعين التشاؤم التى لا ترى فيه إلا كل شر ووبال ، خارت قوانا ، واستكنا للذل والاستبداد ، وطال عتبنا على القدر إذ لم تنل آمالنا و لم نحظ بأمانينا ولا زال القدر سلاح الضعيف العاجز ؟

هيا يارجال العلم ندع ذلك الأدب المظلم بما فيه من موت وفناء ، ولنعمل على إنشاء أدب جديد ، يبعث فينا ميت الرجاء ، ويحيى ضعيف الأمل ، حتى تتقدم أمتنا المصرية إلى الأمام ، وتنال مكانها القديم فى التاريخ ، يوم كانت ينبوع الحضارة ، ومورد الثقافة ، مما جعلها بحق معلمة الشعوب أسفار المدنية ، وآيات الحرية .

أحمد أحمد بدوى

(١) وازن بين هذه العبارة وعبارة الاستاذ الامام (... فهم يعتقدون الامر ثم يطلبون الدليل عليه ، ولا يرونه الا موافقاً لما يعتقدون ، فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه وجدوا فى مقاومته وان أدى ذلك الى جحد العقل برمته : فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ...)